

التعريب والفرنكوفونية في الجزائر تعايش أم صراع؟

Arabization and francophonie in Algeria a coexistence or a conflict?

فاسي عمر*

جامعة طاهري محمد بشار(الجزائر) omarfaci@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2021/12/25

تاريخ القبول: 2021/10/22

تاريخ الاستلام: 2021/09/26

ملخص:

تأسست المنظمة الفرنكوفونية بفرنسا للحفاظ على اللغة الفرنسية والتوسع الثقافي الفرنسي في دول المغرب العربي وبعض الدول الإفريقية، وارتبطت بإيديولوجية وفكرة الهيمنة والتوسع، لا كما يدعي مؤسسوها على أنها تلاقح وتبادل ثقافي وإنساني بين الشعوب. لقد كانت اللغة العربية في الجزائر مع اللغة الفرنسية الدخيلة في تجاذب مستمر وحاد منذ أن وضع الاستعمار قدمه هناك، وازدادت حدة ونشوب هذا الصراع بعد الاستقلال، مما جعل الملاحظين يختلفون في وجهات نظرهم في الحكم على هذه الظاهرة.

وتبين من خلال البحث في هذه الظاهرة أن هناك من يراها تعايشا بين اللغتين وتداخلا قد يعود بالفائدة على اللغتين والشعبين الجزائري والفرنسي وذلك هو الهدف المنشود، وهي كذلك في نظرهم وسيلة وقناة لنقل العلوم والمعارف إلى الجزائريين ودول المغرب العربي، وتدريس اللغة الفرنسية كذلك انفتاح على الثقافات الأجنبية، ومنهم من يراها صراعا عدائيا قائما بين الفرنكوفونيين والمعربين – الذين اتخذوا

سياسة التعريب وسيلة للتخلص من اللغة الفرنسية والقضاء عليها واسترجاع مكانة اللغة العربية – وما يحملونه من اتجاهات وأفكار، فالإشكالية هل الظاهرة "تعايش أم صراع؟" كلمات مفتاحية: فرنكوفونية، هيمنة، تعايش، صراع، إيديولوجية.

Abstract

Francophonie was established in France preserving French language and cultural expansion in the Maghreb and some African countries.

It means domination and expansion, not as its founders claim to be a cultural exchange between peoples. Arabic and French in Algeria are in a attraction since the colonial period.

This conflict has intensified after the independence, making the observers differ in their views on this question, some see it a coexistence and overlap between the two languages

and peoples, and a canal of transferring sciences and knowledge to Algerians and the Maghreb countries and teaching French is an openness to foreign cultures and that's the desired aim , but others see it as a conflict between the Francophones and Arabophones - who have taken Arabization as a tool to get rid of the French language - and their attitudes and ideas ,so the problematic, is : "Is this phenomenon a coexistence or a conflict"?

Key words:

Francophonie – domination – Algeria – France – coexistence – conflict – French – Arabic – Ideology – Arabization

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

تنتسب كلمة Frank إفرنجي إلى القبائل الجرمانية التي احتلت فرنسا في القرن السادس عشر وتعود نشأة اللغة الفرنسية إلى مزيج بين اللاتينية واللهجات الكلتية (السلتية) عام 1539م حين أصدر مرسوم يقضي باعتبار اللغة الفرنسية اللغة الرسمية لفرنسا ثم كرسها لويس الرابع عشر على حساب اللغات القائمة آنذاك.

يتحدث هذه اللغة نحو 80 مليون شخص كلغة رسمية (لغة أم) و 190 مليون كلغة ثانية وتنتشر في غرب أوروبا وكندا وبعض البلاد الإفريقية بما فيها دول المغرب العربي (تونس، الجزائر، المغرب وموريتانيا). وتنضوي تحت هذه الكلمة (فرانك) ثلاثة مصطلحات وهي:

الفرنكوفيلي: هو لمن يكن الحب لفرنسا وثقافتها.

الفرنكوفوبي: من يكره فرنسا ولغتها ويبغضها.

الفرنكوفوني: فرنسي اللّغة أو النّاطق بالفرنسية.

إن التّفاعل الثّقافي بين الشّعوب يرمي إلى التّعرف على لغة الآخر حيث يتم تدريس هذه اللغة بإرادة سياسية تلقائية دون دوافع مكرهة، ويكون ذلك بين البلدين بالأخذ والعطاء منطلقا من تبادل ثقافي متكافئ وتصبح اللغة الفرنسية (مثلا) هنا وسيلة لنقل النتاج الأدبي والفكري الإنساني إلى العربية بالترجمة المتبادلة فهذا التفاعل يعد تعرف طبيعي على اللغة.

وإذا ما أصبحت التقاليد والثقافة الفرنسية أنموذجا يُحتذى به وتصبح طبقة من المجتمع تسعى إلى التقليد الأعمى للتقاليد الثقافية الفرنسية انطلاقا من الإعجاب، فهذا يدعى بالتفرنس وهي ظاهرة التباهي بمعرفة اللغة الفرنسية واستخدام مفردات وعبارات فرنسية في لغة التواصل اليومية دون الدخول إلى عمقها، فهذا اتجاه قشري (سطحي) ومن نحا هذا النحو فذلك هو

الفرنكوفيلي. إلا أن هناك من يسير عكس هذا التيار ويبغض فرنسا ولغتها ويرى الاقتداء بها ذل ومهانة وتبعية وإذلال لهويته.

يرى الكثير أن نشر فرنسا للغتها يرتبط بإيديولوجية الهيمنة والتوسع، بعيدا عن الانفتاح الطبيعي ويتصل عموما بمفهوم العلاقة القهرية بواسطة اللغة الفرنسية التي لا تعني الشعب والمجتمع الفرنسي وإنما الشعوب الأخرى الناطقة بها.

فالشعوب التي تتحدث الفرنسية كانت تحت وطأة الاستعمار الفرنسي ثم انتقلت إلى حالة الاستقلال العسكري، وبقيت مستعمرة ثقافيا ولم يكن هذا اختياريا لهذه الشعوب. وإن كان الجغرافي الفرنسي "ريكوس" (1837م-1916م) منح للفرنكوفونية صفة جغرافية، أو كما قال: "مجموعة السكان خارج فرنسا، الذين يتكلمون الفرنسية"، فقد جاء "كزافيي" xavier مؤكدا في مقال في جريدة "الفكر" في نوفمبر 1962م أن مصطلح الفرنكوفونية دعوة إيديولوجية وزكي ذلك كل من: (سنقور، بورقيبة، نورودوم سبهانوك، هنري سيمون، بطرس غالي وغيرهم..) ويقول "جورج بومبيدو" في الفرنكوفونية أنها: "خلق تجمع لمصالح السياسية والاقتصادية يربط بين الجميع رباطا لغويا ثقافيا وعاطفيا. (المناصرة، 2004)

إن التساؤل في هذه الأوراق البحثية يتمثل في ظاهرتي التعريب والفرنكوفونية في الجزائر أهما متلازمان ومتعايشان ويعودان بالفائدة على المواطن الجزائري أم تجاذب وصراع قد جعلنا من الجزائري يفقد توازنه اللغوي فلا هو احتفظ بلغته وأتقنها ولا هو أتقن لغة المستعمر، فالإلام ينتهي هذا الوضع إذا ما اعتمدت الدولة سياسة تقوم على الثنائية اللغوية أو أحادية اللغة؟ لقد كان الوصف والتحليل غالين في معالجة ورقتي هاته، مستندا على مراجع لأعلام في اللسانيات كالفاسي الفهري وعبد السلام المسدي ، وعز الدين لمناصرة وجان كالفي وغيرهم.

2. اللغة الفرنسية في الجزائر:

كان للغة الفرنسية انتشار واسع في القرن التاسع وبعده أين لعبت الحروب الصليبية دورا لا يستهان به في البلدان الناطقة بالرومانية وبلدان الشرق مثل اليونان وأرمينيا. وامتد هذا التوسع على يد غيوم الفاتح (Guillaume le conquérant) عام 1066م حين احتل إنجلترا واستقرت اللغة لفرنسية من وراء بحر المانش وزاد انتشارها بين النخبة المثقفة في ألمانيا وإيطاليا وهولندا وغيرها من البلاد المجاورة وأصبحت جامعة الصوروبون مركز إشعاع وقبله لطلبة العلم من كل أنحاء العالم آنذاك.

كان لازدهار الفرنسية شأن يشبه شأن اللاتينية في زمنها وفي ذلك يقول برونو (F.Bruno)*:

"لقد علت الفرنسية في أذهان الناس في ذلك الزمان إلى مرتبة اللاتينية، أو على الأقل، إلى أقرب مرتبة منها يمكن أن تصل إليها لغة عامية (...). فأصبحت الفرنسية لغة نصف عالمية. بل يبدو أن المسألة لم

تكن في بعض المواطن مسألة معرفتها وإنما مسألة استقرارها على حساب اللغات المحلية، ولا سيما في إنجلترا"

كانت العلاقة عكسية بين اللاتينية والفرنسية فبقدر ما تراجع اللاتينية وضعفت ازدادت الفرنسية انتشارا وتألقا، وباتت تدرس في الأوساط السياسية والنخبوية وفي وسط العائلات البورجوازية وأصبحت رمزا للأستقرابية في أوروبا، ومع حلول القرن التاسع عشر انتعشت فرنسا على جميع الأصعدة وبخاصة في الاقتصاد، وكان استعمار فرنسا للجزائر وبعض البلدان الإفريقية وكذلك اتفاقية سيكس بيكو عاملا في بسط نفوذ هذه اللغة على مستعمراتها وكان لها الاستقرار. (كالفلي، 2008)

لم تكن للسان الجزائري صلة باللغة الفرنسية، حتى غزو فرنسا للجزائر سنة 1830 بعد الوهن الذي ألمّ بالكيان العثماني فكان للسان الفرنسي أن يحط الرحال هو كذلك بهذه المستعمرة، ويبدأ في التسرب في أوساط المجتمع الجزائري الذي كان لسانا عربيا أمازيغيا خاليا من أي تلوث، ونحن في هذا العصر نتخيل ما هي لغة الجزائري التي كان يتواصل بها سواء في الشمال أو في الهضاب أو في الجنوب وقد نلمس آثارها في بعض الأشعار القديمة...ونلفي هذا في شعر الشيخ قويدر بلخضر المدعو "بن طربة" وهو من مواليد 1883 من قبيلة الشعانبة بصحراء شرق الجزائر (متليلي)...إذ يقول:

اسمع يا عراف مَني	وافهم للمعنى صوابو
أنا ولدي خابٌ ضني	واضنون الزينين خابو
خيار المرء يكون بزني	وما يهداها في عُقابو
شاطر فالختلة ويثني	ويعرف للختال حربو
ويلا شاف الما ايوي	قبل لا لسهاب جابو
واكهي سرك يا قُريني	واعرف وين تُحل بابو

من خلال هذه الأبيات فإننا لا نجد للألفاظ الدخيلة حضور في هذه الأبيات من شعر الحكمة وهذا لصفاء اللسان الجزائري آنذاك وخلوه من الشوائب التي غزته بعد الاحتلال.

حين استقر المستعمر الفرنسي ببلاد الجزائر بدأ التواصل بينه وبين الأهالي وإن كان قليلا وبالتالي بدأ الفرد الجزائري يكتسب اللغة الفرنسية رغما عنه وهذا بمهارة السمع والمشاهدة لا تعليما ولا دراسة، وممن كان لهم الاتصال والتواصل المباشر هم المترجمون والعملاء وبعض شيوخ القبائل والعروش، وما إن حلت الحرب العالمية الأولى والثانية حتى انتشرت اللغة الفرنسية انتشارا واسعا في ربوع الجزائر من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها، حتى إن لم يتواصل بها الكل فكانوا يفهمونها ولا سيما في المدن الشمالية بحكم كثافة السكان هناك.

اختلفت مقاصد فرنسا من مستعمرة إلى أخرى وكانت غايتها الأولى في شمال إفريقيا أن تجعل من الجزائر إقليما فرنسيا وامتدادا لحدودها السياسي وبعثته آنذاك ب الجزائر الفرنسية L'Algerie

Française. ولتحقيق هذا المبتغى فلا بد من تثبيت كل توفير كل العوامل الداعية إلى ذلك من لغة وفكر وثقافة وعقيدة وعادات وتقاليد، وكل هذا تحت حجة الحضارة والتحضر وبذلت جهدا كبيرا لطمس اللغة العربية، وحاربت الزوايا التي كانت قبلة لطلب العلم وتعليم القرآن الكريم واللغة العربية، وشجعت الشعوذة والدجل وشوهت فلسفة الزوايا مما أدى إلى انتشار الأمية والجهل في أوساط الشعب الجزائري.

أصبح الشعب الجزائري ثلاثي اللغات، الأمازيغية بكل أطرافها والعربية (العامية) ثم الفرنسية التي كانت لغة المؤسسات العمومية والخاصة ولغة التدريس في المدن والقرى، وكانت تدعم عمال التدريس باحتياطي الجيش الفرنسي ولا سيما في القرى والمناطق الريفية. يقول أحمد توفيق المدني: "كان التعليم أيام الحكومة الفرنسية استعماريا بحتا، ولا يعترف باللغة العربية ولا يقيم لوجودها أي حساب، فاللغة الفرنسية هي وحدها لغة التدريس في جميع مراحل التعليم" (المدني، 1963)

وكان ضعف اللغة العربية من نتائج الجهل والحرمان والتخلف، مما أدى إلى خلق لغة شوّهها اللغو واللغظ فلا هي دارجة (عربية ملحونة) كما كانت قبل الاستعمار ولا هي فرنسية سليمة، بل هجين أعرج التركيبية وهذا على جميع مستويات اللغة.

تعد لغة الأم بالمغرب العربي عامة وبالجزائر بصفة خاصة هي اللهجة العربية (الدارجة) أو الأمازيغية باختلاف أطرافها من إقليم إلى آخر ومن قبيلة إلى أخرى وهي في الحالتين معا منطوقة، وأما من ناحية التدوين فيتم عموما بالخط العربي منذ زمن أو بالأحرى بعد الفتوحات الإسلامية و اللاتيني حسب المستوى التعليمي للمدوّن، أما بحروف التيفيناغ* فهذا كان نادرا والأ في الأوساط الأمازيغية. لم تشهد أبجدية التيفيناغ تطورا في الطباعة والتدوين وهذا لانتشار اللغة العربية في شمال إفريقيا بعد انتشار الإسلام في شمال إفريقيا وتعريب السلطة في هذه الأقاليم (المغرب العربي) قبل دخول الاستعمار الفرنسي وحين احتلاله لهذه البلدان اشتغل بضرِب اللغة العربية التي كانت رمزا لهوية المنطقة واستبدالها بالدارجة أو العامية.

3. انتشار اللغة الفرنسية وغزو اللغة الأم:

لم تكون الدعوة إلى العامية (الدارجة) محصورة في بلاد المشرق العربي وزعمهم بأنها سهلة الاكتساب والتحصيل وإنما انتقلت العدوى إلى بلاد المغرب العربي، ورسم هذه الاستراتيجية الاستعمار لؤاد رمز الهوية والوجود العربي الأمازيغي الإسلامي، وهذا بمحاربة اللغة الفصحى ولا زال النظام الفرنسي بتعاقب حكوماته يلهث خلف هذا المبتغى وبمختلف الوسائل لإنعاش اللغة الفرنسية التي تتراجع بعد تنازلي بعد انتشار اللغة الانجليزية واتساع رقعة استعمالها في جميع أنحاء العالم.

أصدرت فرنسا إبان الحقبة الاستعمارية في هذا الأمر نصوصا عدة لمحاربة اللغة العربية وتعليم القرآن الكريم وإغلاق المدارس القرآنية والكتاتيب، وربط فتحها بشروط تعجيزية لأن تعليم القرآن

واللغة العربية هو نشر الثقافة العربية وزرع النهضة بين أوساط الأهالي، ومن هذه الشروط مثلا ضرورة الحصول على ترخيص من الإدارة المدنية والعسكرية ولا يتحقق هذا إلا برضا الحاكم العام للجهة. وينص القانون الذي أصدر بتاريخ: 1904/02/24م. على ما يلي: "يُمنعُ على كل معلم مسلم أن يتولّى إدارة أي مدرسة من هذه المدارس (القرآنية) دون ترخيص من الحاكم أو جنرال المنطقة وإن القيام بفتح أي مدرسة دون ترخيص يعتبر خرقا للقانون الخاص بالأهالي." ومن الشروط ومن الشروط المستعصية كذلك هو أن يكون المعلم القرآني يتقن اللغة الفرنسية، وهذا من المستحيل مما أدى إلى غلق جل المدارس القرآنية. (الودغيري، 2014)

أدت هذه الاستراتيجية الاستعمارية إلى انتشار اللغة الفرنسية بشكل رهيب بين أوساط الجزائريين مما جعلنا نجد وإلى حد الآن شيوخا في أدغال منطقة القبائل بالشمال الجزائري شيوخا لا يتواصلون إلا باللسان الفرنسي أو اللغة الأمازيغية ورثوا هذا عن أجدادهم. ومما عزز هذه الظاهرة هو إرساء فرنسا (في جميع دول المغرب العربي) لمؤسسات اقتصادية واجتماعية وإدارية وثقافية تتعامل كلها باللغة الفرنسية وزاد هذا من اختفاء اللغة العربية اختفاء يختلف نسبيا من بلد إلى آخر. وحملت هذه اللغة بين طياتها سلوكات وعادات لم يعرفها التونسي ولا الجزائري ولا المغربي من قبل، فشأنهم شأن المواطن المصري مع الاستعمار البريطاني.

لقد كان لهذه اللغة الدخيلة بالمغرب العربي عامة وبالجزائر خاصة آثارا تحمل الإيجاب والسلب في آن واحد، حيث كان تسلط فرنسا على بلدان المغرب العربي بالتدرج (الجزائر 1830م، تونس 1881م، المغرب 1912م) حاجزا جعلها تتعثر في تركن تحت وطأة التخلف والحرمان وفقدان هويتها. وما نشير إليه أن هذا التسلط كان متباينا بين هذه البلدان ففي مدينة فاس بالمغرب مثلا هناك أماكن لم تطأها القدم الفرنسية بيد أن في الجزائر وبالرغم من شساعة أرضها فلم تترك فرنسا شبرا إلا مسحته مما جعل اللسان الفرنسي يهيمن على لغة التواصل بين الجزائريين ولو نسبيا، وما كان إيجابيا في هذه الثقافة نذكر ما يلي:

- أسست فرنسا الحالة المدنية لإحصاء الجزائريين، وأقامت المؤسسات العمومية، كالبريد والبنك وشركات الكهرباء والغاز والمياه، ومكاتب التوثيق.
- تخرج من المدرسة الفرنسية كتاب وروائيون (باللغة الفرنسية) بمرجعية اجتماعية ثقافية جزائرية مثل محمد الديب، مولود فرعون، كاتب ياسين، مولود معمري، مالك حداد والمفكر مالك بن نبي وغيرهم....
- كان لها امتداد إلى الآن فلازال هناك من ينتج باللغة الفرنسية مثل مليكة مقدم، ياسمينة خضراء (محمد مول السهول) والمفكر بيير رابجي ولو أنه غادر الجزائر قبل الثورة التحريرية...
- التطلع إلى الآداب الأجنبية الأخرى وهذا بالنسبة للمتعلمين.

- لا زال الطلبة بخاصة خريجي الجامعات الجزائرية يزاولون دراساتهم باللغة الفرنسية خارج الديار (بفرنسا مثلا) ومن المؤسف أنهم لا يعودون لبلدهم ويسهمون في بناء اقتصاد الدول الأجنبية ولا سيما في الطب والصناعة والاقتصاد....

وما كان سلبيا أوجزه فيما يلي (جلبير، 2011)

- بسط هيمنة ثقافية ولغوية أجنبية ولا سيما في المدن مما أدى إلى حدوث تصدعات في أوساط المجتمع. (وتمثل هذا في الفئة الموالية للوجود الفرنسي التي آثرت بقاءه على رحيله).

- تلوث اللغة الأم (اللغة العربية) ونخر كيانها حتى فقد الكثير القدرة على التعبير بلغة سليمة منسجمة وضعف في اتقان لغة وطنية مشتركة أو ما يسمى بالأمن اللغوي.

- فصل الشعب الجزائري عن الأمة العربية وقوميتها والسعي لفرنستها، حتى أصبح الإخوة العرب يروننا غرباء وبخاصة المشاركة.

4. الفرنكوفونية ومحاصرة اللغات الأخرى:

ما تحدث الناس باللغة الفرنسية قديما كما يتحدثون بها الآن وهذا راجع إلى الانفجار الديموغرافي للناطقين باللغة الفرنسية، وكذلك التوسع الاستعماري فما يزيد عن 70 مليون من يتكلمون الفرنسية في فرنسا وبلجيكا وسويسرا واللوكسمبرغ وكندا كلغة أولى، وكذلك في المغرب العربي وإفريقيا السوداء الذين لم يتم إحصاءهم، إن في شمال إفريقيا وجنوبها نجد ما يربو عن 150 مليون من يتكلمون الفرنسية زيادة على المدارس والمعاهد التي تدرس هذه اللغة.

لقد عاشت اللغة الفرنسية سنين عجاف في الأمم المتحدة حين كان أمينها العام لا يبالي بها ويعارض استخدامها وحتى جهاز من الموظفين يطلب منهم أن يستمع إليهم بالانجليزية وهي اللغة الوحيدة التي لها حق الاستعمال في جميع مصالح المنظمة، وبعد ذلك حدث انقلاب سياسي كان له أثر على الفرنسية وهو استقلال 22 دولة إفريقية جديدة ناطقة باللغة الفرنسية فتغيرت ظروف العمل والعلاقات العامة وكذا التصويت، وأصبح عدد المتدخلين باللغة الفرنسية في مناقشات الهيئة العام مساويا لعدد المتدخلين باللغة الإنجليزية.

لقد ظهر مصطلح الفرنكوفونية في القرن التاسع عشر (1880م)، ويعود اختراعه إلى عالم الجغرافيا الفرنسي أونيزيم ريكلو (Onésime Reclus) حين صنف سكان العالم انطلاقا من اللغة التي يتحدثون بها، وبدأت تأخذ هذه الفكرة شكلها السياسي بالتدرج، وذلك بتأسيس عدد من المنظمّات واللجان والرابطات الفرنسية والدولية وكانت هذه أثناء رئاسة شارل ديغول* وجورج بومبيدو* للجمهورية الفرنسية آنذاك، ومنها ما يلي:

1961: إنشاء رابطة الجامعات التي تتعامل بالفرنسية كليا أو جزئيا (AUPELF).

1966: إنشاء اللجنة العليا لحماية الفرنسية ونشرها والتي أصبحت في سنة 1973 اللجنة العليا للغة الفرنسية.

1967: إنشاء الرابطة الدولية للبرلمانيين الناطقين باللغة الفرنسية (AIPLF) وكذلك المجلس الدولي للغة الفرنسية (CILF) الذي يعقد اجتماعات دورية كل عامين للغة الفرنسية.

1970: إنشاء لجنة التعاون الثقافي والتقني (ACCT)

وإضافة إلى إنشاء هذه الهيئات، تطور جهد فرنسا لنشر لغتها في الخارج وهذا بتخصيص أموال كبيرة للعمليات اللغوية والتربوية بتسهيل التربصات بالمعاهد والجامعات بفرنسا وكذا الإسهام في إعداد الكتب المدرسية (كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، 2008).

لقد اجتهد حماة اللغة الفرنسية في محاصرة اللغة العربية واللغات الأم للمستعمرات الفرنسية بإفريقيا وحرصت على مساعدة مجموعة الدول الفرنكوفونية من أجل تنمية التعليم شريطة أن يكون باللغة الفرنسية كلياً وأن تكون الفرنسية لغة الإدارة العمومية ومؤسساتها.

والمشهور من الأقوال عند العرب هو تصريح المخرج السينمائي المصري يوسف شاهين حين قال:

"إن الفرنكوفونية لتسمح لنا نحن العرب وهويات أخرى مهددة بالثقافة الأمريكية الساحقة بالائتلاف لأنه بمفردنا نصير غير قادرين على الدفاع عن أنفسنا" وفي المجلس الوطني بالنيجر عام 1965م قال بورقيبة في كلمة ألقاها: "إن اللغة رابطة أسري متميز، يتجاوز الرابطة الإيديولوجي... وإن اللغة الفرنسية لتشكل سندا لتراثنا الثقافي وتعني تفكيرنا وتعبر عن منجزاتنا وتسهم في صياغة مصيرنا الفكري وتجعل منا بحق رجالاً" (الأوراغي، 2002).

إن التضييق على اللغة العربية كان مخطط له منذ دخول فرنسا شمال إفريقيا 1830م حيث سنت سياسة بربرية في بلدان مغاربية وشرعت بتطبيقها بالجزائر سنة 1859م ثم بالمغرب سنة 1914م وترتب عن هذا أنه انشقت طائفة من الأمازيغ وتطور أفرادها في إطار اللغة الفرنسية وثقافتها العلمانية وكونوا لأنفسهم حركة بربرية تتميز بالانتصار لإطارها ومناهضة بتعاون مع الحركة الفرنكوفونية للغة العربية وثقافتها الإسلامية، ولا زالت هذه الطائفة تسعى نحو هدفها المنشود.

5. الفرنكوفونية في الجزائر:

ما اكتفت الفرنكوفونية أن ترسي قواعدها في بلاد المشرق كلبنان مثلاً وإنما وضعت مكاناً لها بدول المغرب العربي إلا أن هناك فروق في ذلك فالسياسة الفرنكوفونية لا تعني معرفة اللغة الفرنسية وإتقانها، فليس كل من تعلم لغة قوم أحبهم أو ذاب في مرجعيتهم الثقافية وقيمهم الحضارية وأنكر ماضيه واحترق لغته، فمثل هذا في بعض الجزائريين الذين انغمسوا في خدمة المعمرين وتلذذوا بالوجود في أحضانهم وجعلوا من المعمر القدوة في السلوك والأخلاق والتحضر وهم نُعتوا بـ "الحرّكة" وكثير منهم من لا يعرف اللغة الفرنسية وهم أميون.

ومن جهة أخرى هناك أعلام حذقوا لغة موليير وبالزك، وأبدعوا بها لكنهم ظلوا وطنيين مخلصين لبلدهم الأم فقد وصف الأديب "كاتب ياسين (1929-1989) اللغة الفرنسية بأنها لسان الذئب وكان يقول "أكتب بالفرنسية لأقول للفرنسيين -بلغتهم- إني لا أحبكم". وكان مالك حداد (1927-1978) يقول: "اللغة الفرنسية هي منفاي الأشد قسوة من منفاي عن وطني" وقال أيضا: "إن المدرسة الفرنسية تستعمر أرواحنا".

يقول المهدي المنجرة (المغرب 1993م): "تعتمد الفرنكوفونية على مركب النقص فينا، أكثر مما تعتمد على التعاون الثقافي الحقيقي، ففي الوقت الذي تأتي فيه وزيرة الفرنكوفونية في فرنسا للدفاع عن الفرنكوفونية في المغرب العربي، علينا أن نتذكر مواقف فرنسا في تعليم اللغة العربية لأكثر من مليون من أبناء المهاجرين، فالأمر لا يتعلق بتعاون ثقافي وانعدام الرغبة في الانفتاح، بل بسياسة هيمنة تريد أن تندثر بلبوس التعاون والانفتاح." (لمنصرة، 2004)

6. اللغة والهوية:

إنَّ اللِّغَةَ في الأصل ترجمة انتماء إلى جماعة، شعب أو أُمَّة تستلهم هويتها من الوعي بالذَّات الجماعية أو التَّاريخ (الذاكرة) أو الجغرافيا (التراب). لقد تشكلت الأمم والدَّول الحديثة وتوحدت باللغَة مثل ألمانيا، فرنسا وإيطاليا قبل أن يوحدتها العرق أو الدين. حدا اللسان العربي حدو هذه الأمم في أطواره وتجاربه وجمع بين العرب قطريا اتحاديا أو عالميا. وما كان لدوره الجامع أن يتناقض ويتعارض مع حق الأقليات اللغوية ذات المطامح المشروعة إلى الاعتراف بالاختلاف داخل الأمة الواحدة، واستطاع كذلك أن يحمل مطالب ومشاعر طبقات معينة ومشاعر وطنية وقومية وثورية وثقافات مختلفة فالتعدد أصل في اللسان العربي. ومهياً كذلك أن يحمل تعابير الفن والعلم وأن يعبر عن جميع الأجناس الأدبية والقيم الأخلاقية والثقافية. ولكل لسانه داخل هذا اللسان فهو يتردد بين المصلحة الفردية أو الجماعية الضيقة أو المصلحة العامة لأغلبية المواطنين، فاللسان العربي الجامع لسان القرآن وامرئ القيس والجاهلية وأبي نواس والشعوبية والحلاج وابن الفارض والصوفية والمتنبي والشابي فهو لسان التحرر والثورة. شهدت التجارب التاريخية مدى ارتباط اللغة القومي ودورها ببناء الحضارات والأمم، فقوة اللغة تترجم قوة الأمم وإضعافها ينخركيانها وقد أكد الفلاسفة والعلماء والساسة هذه العلاقة ويقول ابن حزم في هذا: "إنما يقيد لغة الأمة علومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها، وأن اللغة يسقط أكثرها بسقوط أهلها ودخول غيرهم عليهم."

ويقول الفيلسوف الألماني هردير ويقول الفيلسوف الألماني هردير Herder في ذلك: "هل للأمة شيء أعلى من لغة الأباء؟"

ويؤكد الأديب الفرنسي دودي Daudet في هذا الأمر قائلا: "عندما يستعبد شعب، فإذا حافظ على لغته، فكأنه يملك مفتاح سجنه."

تصدى الاستعمار الفرنسي والإنكليزي والتركي للغة العربية من أجل إفقاد ثقة الشعوب العربية والإسلامية فيها واستبدالها بلغته. فقد كان نابليون Napoléon يوصي جنوده بتعليم اللغة الفرنسية في مستعمراته، وصرّح ديغول De Gaulle أن اللغة الفرنسية اخترقت الشعوب العربية وغير العربية فحققت أكثر ما حققته الجيوش. أصبحت معظم الشعوب العربية تتبنى لغة المستعمر بدل لغتها بحجة البحث العلمي والتطور التكنولوجي وبات الطفل العربي من الروضة إلى الجامعة منفصلا عن لغته وثقافته وهويته (الفهري، 2013).

7. التعريب والهوية الوطنية:

من ثوابت الأمة ورموز سيادتها اللغة، ولأجل إظهار هذا دعت الدولة إلى التعريب، وعندما أثار الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي وكان حينئذ وزيرا للتربية الوطنية سنة 1966 م لم يجد من يؤازره في هذا الحمل ولا يرجح كفته سوى الرئيس الراحل هواري بومدين، ممن كان القرار بأيديهم، فالفرنكوفونية في الجزائر كانت بذورها سياسية استعمارية فأورقت وأزهرت ثقافة مستبدة. وأفرزت هذه المقابلة -ثنائية الفرنكوفونية والتعريب- تقابلا ضديا لا منطقة وسطى بينهما.

ظلت ثنائية الفرنسية والعربية ضدية قائمة -رغم إصدار قانون التعريب - بين المعربين والمفرنسين أو ما يسمى بـ: Les Arabophones et les Francophones. وبخاصة عند أصحاب القرار وفي جلّ الوزارات وباتت هذه الظاهرة تآكل جسم وكيان الدول العربية وبعض الدول الإفريقية مما جعلها في مؤخرة البلدان تعاني من الفقر والتخلف في كلّ الميادين وبخاصة الاقتصادي والتّنامي.

يقول عمر بن جلون وهو ناشط سياسي يساري مغربي: "إنّ الانفتاح الواعي الهادف على العالم المعاصر يَمَكِّننا من ردم تلك الهوة التي تفصلنا من أجدادنا الذين لم يجدوا حرجا وما يدعو إلى التردد في تكييف هذه اللّغة ذاتها وتطويع قوالها حتىّ تتمكن من التّعبير عن قضايا مختلف علوم العصر. وإذا كانوا قد واجهوا ما نسميه اليوم نحن "مشكل" المصطلحات العلميّة والفنيّة، فإنّهم لم يتردّدوا في تجاوز هذا المشكل بتعريب أو ترجمة المفاهيم والكلمات الجديدة التي لم تكن اللّغة العربية تتوفّر حينئذ على ما يقابلها. بل أنّهم كثيرا ما اكتفوا بنقلها كما هي لتتعرّب أو يفرض الاستعمال كلمات أخرى تنوب مناهها. فعلوا ذلك إدراكا منهم بأنّ الإنسان هو الذي يخلق اللّغة، وأنّ تقدم لغة من اللغات مرهون أساسا بتقدم من يتكلمون بها" (الفهري، اللسانيات واللغة العربية، 1986)

ويؤكد عمر بن جلون أن اللغة تنمو بتطور أصحابها، ومواكبتنا للعالم المعاصر ويتحقق هذا إن نحن طوعنا لغتنا حسب متطلبات العصر وهذا بخلق استراتيجية لحل مشكلة المصطلح في ميدان العلوم والمعرفة وتعريب الجديد فيها دون نقلها كما هي، فإن ذلك يزيد من ضعف اللغة العربية.

ولئن تساوت بلاد المغرب العربي في هذه المحنة، فإن الأمر في الجزائر كان أشد وطأة مما كان عليه في الجناحين. ففي تونس كان هناك إرث ثقافي عريق جسّمته مدرسة القيروان ثم الجامعة الزيتونية،

وهذا ما كان ذرعا واقيا للغة في وسط النسيج الاجتماعي، رغم وجود المدارس المسماة "فرنسية - عربية" (Franco-Arabe) وهذا ما لعبته جامعة القرويين بفاس بالمغرب. لم يكن مواطنو المغرب العربي -بعد استقلال بلدانهم - كلهم يسارعون في تمجيد اللغة العربية، فمعركة التحرير في تونس مثلا أفرزت انشقاقا بين فيلقين يحملون رؤيتين للمقاومة لكل منهما تصور لمفهوم الهوية ولأفق التمدن بحسب إملاءات التطور التاريخي...ويتجلى هذا في تصور "زيتوني" إسلامي، وتصور حدائي عصري...

إن الوضع اللغوي في الجزائر شاهد فصيح على مخالفات الاستعمار الفرنسي، وروح المقاومة لدى الجزائريين تظل أنموذجا متفردا. ورغم إصدار عدة نصوص تشريعية كالقانون الذي أوجب تعميم استعمال اللغة العربية سنة 1991م. ومن مواده (المسدي، 2011) المادة 1: يحدد هذا القانون القواعد العامة لاستعمال اللغة العربية في مختلف ميادين الحياة الوطنية وترقيتها وحمايتها.

المادة 5: تحرر كل الوثائق الرسمية والتقارير ومحاضر الإدارات العمومية والهيئات والمؤسسات والجمعيات باللغة العربية. ويمنع في الاجتماعات الرسمية استعمال أية لغة في المداولات والمناقشات. المادة 7: تحرر العرائض واستشارات وتجري المرافعات أمام الجهات القضائية باللغة العربية. وتصدر الأحكام والقرارات القضائية وآراء المجلس الدستوري ومجلس المحاسبة وقراراتهما باللغة العربية وحدها.

المادة 11: تكون مراسلات جميع الإدارات والهيئات والمؤسسات والجمعيات باللغة العربية وحدها. المادة 20: تكتب باللغة العربية وحدها العناوين، واللافات، والشعارات والرموز، واللوحات الإشهارية، وكل الكتابات المطلية، أو المضيئة والمجسمة، أو المنقوشة: التي تدل على مؤسسة أو هيئة أو محل، أو التي تشير إلى نوعية النشاط.

كانت هذه بعض المواد من القانون والذي لم يُصادق عليه حتى 17 ديسمبر 1996، ودخل حيز التنفيذ في 5 جويلية 1998 وصدر في 11 جويلية مرسوم رئاسي يؤسس (المجلس الأعلى للغة العربية). ولأن روح المقاومة لدى الجزائريين تظل أنموذجا متفردا، ورغم إصدار هذه النصوص التشريعية فلا زالت الثنائية الضدية بين الفرنكوفونية والهوية متأججة، وعند مشاركة الجزائر في القمة التاسعة للمنظمة الفرنكوفونية ببيروت (18-20 أكتوبر 2002) انطلق الجدل من جديد فانشق جمهور النخب السياسية إلى طائفتين تتراشقان أكثر مما تتحاوران، وعند وصول ساركوزي إلى الحكم أسس وزارة "الهجرة" فاختلطت الأصوات وأُحييت الجراح وراح دعاة الهوية من الوطنيين يقذفون الفرنكوفونية على وجوه دعاةها ويطالبون فرنسا بالاعتذار عن جرائمها أثناء حقبة الاستعمار.

لقد تفتّن رجال الإعلام الغربيون إلى حد ما بمناورتهم في نشر فكرة - صدّقها المواطن في الغرب - تحمل ارتباط صورة الإنسان العربي بظاهرة الإرهاب، وهذه العملية اللغوية الذهنية النفسية الثقافية هي التي يتم تشغيلها لخلق اقتران وثيق آخر يجمع بين صورة العربي وصورة المسلم ذهابا وصورة المسلم وصورة العربي إيابا، وبهذا التفاعل من خلال الخطاب الإعلامي الغربي تتشكل ظاهرة الإرهاب. وبما أنّ اللّغة العربية هي المرجعية القومية للمواطن العربي والمرجعية الاعتبارية للإنسان المسلم - حيث أنّها لغة الكتاب والسُنّة - فبالتالي تصبح هي الشرارة الكهربائية المولدة للطاقة وهذا في استراتيجية الخطاب الكوني المتسلط.

فاللّغة العربية في الجزائر تعد ملحمة ذات فصول بالغة التشويق، وسجّل مشاهدها الدكتور عثمان السعدي حين أسس "الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية" في إصدار عنونه ب "خمسة عشر سنة من النضال في خدمة اللغة العربية"، وذلك منذ سنة 2005م وتصدر مؤلفه ما يلي: "هذا الكتاب وثيقة تؤرخ لصراع اللغة العربية، لغة البلاد والعباد في الجزائر مع لغة المستعمر السابق، وذلك بين سنة تأسيس الجمعية 1989م وسنة 2005م. كما يتناول الكتاب الجهات التي كانت مع حق اللغة العربية - كلغة وطنية مشتركة بين كل الجزائريين- في السيادة على قطرها ودولتها، وتلك التي كانت ضدها تعمل لصالح استمرار هيمنة اللغة الفرنسية على الدولة الجزائرية. ويسجل مدى التراجع الكبير بالسنوات الأخيرة في وضع لغة الضاد، والتوجه نحو تصفية المكاسب التي حققتها في الأربعين سنة الماضية، والعودة بالوضع اللغوي إلى ما قبل 1954م، وذلك في نطاق عمل القوى المعادية للعرب والعروبة في ضرب أقوى رابط والمتمثل في اللغة العربية التي تحفظ الهوية المشتركة بين أبناء الأمة العربية وتؤسس لوحدها..." (المسدي، العرب والانتحار اللغوي، 2011)

وأذكر في هذا السياق، عندما زار الرئيس الفرنسي جاك شيراك الجزائر (4 مارس 2003) ردا على زيارة الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة لفرنسا (16 جوان 2000) أرسل الدكتور عثمان سعدي رئيس جمعية الدفاع عن اللغة العربية رسالة مفتوحة إلى الرئيس جاك شيراك يقول فيها: "سيدي الرئيس، أولا نرحب بكم في الجزائر، نحن الوطنيين المدافعين عن لغتنا الوطنية التي هي العربية. نرحب بكم كحاملي لواء مناهضة العدوان على العراق الذي يعتبر في هذه الأيام هاجس العرب والمسلمين. ونستمد نضالنا حول الهوية من موقفكم الوطني عن الهوية الفرنسية ومن جوهرها المتمثل في اللغة الفرنسية. فأنتم-الفرنسيون الشرفاء-تناضلون منذ نصف قرن من أجل حماية اللغة الفرنسية من تهديد الانكليزية. وهذا ليس غريبا عنكم: فأنتم الوارثون لتراث الثورة الفرنسية العظيمة التي شرّعت قانون تعميم استعمال اللغة الفرنسية بفرنسا سنة 1794. هذا القانون الذي ساهم بقدر كبير في بلورة الأمة الفرنسية، والذي احتفلت فرنسا حكومة وشعبا بذكراه المائتين سنة 1994 بإصدار قانون حماية اللغة الفرنسية الذي عُرف بقانون توبون. لكن ما هو حسن وجميل في فرنسا يُعتبر في نظر الكثير من الساسة والمثقفين الفرنسيين رديئا وقبيحا في الجزائر. ففي نظرهم من حق الشعب الفرنسي أن يدافع

عن لغته ولو كان هذا الدفاع في مواجهة تهديد ضئيل آتٍ من تسرب كلمات انكليزية للغة الفرنسية. لكن لا يحق للجزائريين في نظرهم الدفاع عن لغتهم في مواجهة هيمنة لغة أجنبية على دولتهم. وهذا يدخل في منطلق الكيل بمكيالين." (المسدي، العرب والانتحار اللغوي، 2011)

8. خاتمة:

نستخلص مما ذُكر أنه إن كانت فرنسا قد طوقت بعض البلدان من إفريقيا والمغرب العربي على الخصوص بدعم تعليم اللغة الفرنسية وانضواء هذه البلاد تحت مظلة الفرنكوفونية قصد الحفاظ على لغتها من الانقراض واسترجاع عصرها الذهبي الذي لم يعد كما كان، وتوسع اقتصادها ونشر ثقافتها واستغلال ثروات مستعمراتها القديمة، وقد أفلحت في مخطط هذه الاستراتيجية إلا أن هناك بعض الدول آثرت الخروج عن هذه الدائرة لاعتبارات سياسية اقتصادية ثقافية وسيادية كما هو الحال في الجزائر، البلد الذي نال من فرنسا ويلات الهيمنة والاستغلال إبان الفترة الاستعمارية. لقد أثبتت رواندا في السنوات القليلة ما ينجر عن اعتماد اللغة الفرنسية من تخلف وضعف، حين جعلت من اللغة الانجليزية لغة ثانية لها وخطت خطوات عملاقة في نسبة نموها، ويرى قادتها أن جل المستعمرات الفرنسية والفرنكوفونية بالخصوص لا زالت تحت خط الفقر مثل المالي والنيجر وبوركينا فاسو وغيرها....

وإن كان بعض الدارسين يرون أن سياسة فرنسة اللغة في دول المغرب العربي تكامل وتآلف مع اللغة الأم وإثراء للمدونة اللسانية وتلاقح ثقافي يعود بالفائدة على اللغتين بحجة العولمة والتواصل، ومنهج يأخذ بهذه الدول إلى عالم الحضارة والحداثة والتكنولوجية والتطور، فهناك من يراها صراعا بين اللغتين والبقاء للأقوى وبرنامجا بعيد المدى لتضعيف اللغة العربية وتلويث مخزونها المعجمي وتجريد هذه البلدان من هويتها وتهديد أمنها اللغوي، وحتى تنهض الأمة بلغتها فلا بد من رسم خطوط ومناهج في الأوساط التربوية لتكوين جيل مهتم بلغته ويتقنها والرفع من قيمة العربية ومحو فكرة أنها لغة الشعر والأدب واعتمادها لغة للعلم والتكنولوجيا كسائر اللغات، وتكون اللغات الأجنبية اختيارية، فالأمم تتقدم بالهوض بلغاتها وتضعف وتتخلف بضعف بلغاتها.

9. قائمة المراجع:

- (1) أحمد توفيق المدني. 1963. جغرافية القطر الجزائري. الجزائر. (مكتبة النهضة، الطبعة الثانية).
- (2) غرانغيوم جليبر، 2011. اللغة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي. ت: محمد أسليم، المغرب. (أفريقيا الشرق الدار البيضاء، الطبعة الأولى).
- (3) عبد السلام المسدي. 2011. العرب والانتحار اللغوي، لبنان. (دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى).
- (4) عبد القادر الفاسي الفهري، 2013، السياسة اللغوية في البلاد العربية، لبنان، (دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت الطبعة الأولى).
- (5) عبد القادر الفاسي الفهري، 1986، اللسانيات واللغة العربية، لبنان، (منشورات عويدات، بيروت الطبعة الأولى).
- (6) عبد لعللي الودغيري، 2014، لغة الأمة ولغة الأم، لبنان، (الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى).
- (7) عزالدين لمناصرة، 2004، الهويات والتعددية اللغوية، قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن، ليبيا، (مكتبة النقد الأدبي، الصايل للنشر والتوزيع).
- (8) لويس جان كالفي، 2008، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ت. د. حسن حمزة، لبنان. (لمنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى).
- (9) محمد الأوراعي. 2002. التعدد اللغوي وانعكاساته على المجتمع. المغرب، (منشورات كلية الآداب بالرباط. مطبعة النجاح الجديدة الطبعة الأولى).